

الهوية والتعليم العربي في الجزائر

د. رمضان حينوني/ المركز الجامعي لتنامنغست

تمهيد:

تقتضي سنة الله في خلقه أن يكونوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ويتعاونوا ويتبادلوا ما ينتفعون به في حياتهم المعيشية والفكرية والدينية، إلى أن يرى بعضهم أن اتجاهها واحدا يخدمهم فيتحذون حوله ويشكلون كيانا يتميز عن غيره بميزات خاصة، فتشكلت شعوب كبرى من شعوب صغرى متفرقة ارتضت لنفسها ضوابط ومقومات وبنيت مجتمعات على أسس فكرية محددة، وخاضت من أجل الحفاظ على كيائها نزاعات وحروباً وتحالفات، حتى استقرت سفينة العالم الحديث على هذه الكيانات المعروفة الآن، والتي بلورتها بشكل واضح الحريان العالميتان، في النصف الأول من القرن العشرين.

وإذا كانت السياسة والاقتصاد محور الصراع الدولي بين هذه الكيانات في الظاهر، فإن الثقافة والفكر محرران أساسيان للسيطرة والغلبة والتفوق، وقد جاءت العولمة لتكشف عن جزء من معالم الصراع الحقيقي خاصة بين الشرق والغرب أو بين العالم العربي والإسلامي والغرب تحديدا لأسباب تاريخية ودينية، خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة أين بدا واضحا أن السيطرة على العالم العربي لن تمر دون إحداث تغيير ما على التركيبة الثقافية للإنسان العربي، أو على الهوية الثقافية لهذا الإنسان، فكانت منظومة التعليم هي الثغرة المقترضة التي ينفذ الغرب من خلالها إلى الغرض المنشود.

وعلى الرغم من محاولة الإسلام تغيب الهوية المختلفة في إطار وحدة الأصل [كلكم لأدم وأدم من تراب] ووحدة الدين، إلا أن المشاكل المرتبطة بالهوية ظلت تطل برأسها بين الحين والآخر نتيجة لعوامل عدة، وقد أدى ذلك في أحايين كثيرة إلى تمزق الكيان الأكبر إلى دول وكيانات ساهم في تعرضها إلى حملات الاستعمار وما ينجم عنه من آثار سلبية. غير أنه، وانطلاقاً من هذا الواقع، حاولت كثير من المجتمعات العربية أن تؤكد على وحدة الهوية التي تجمعها في إطار ما يعرف بالوطن العربي لمواجهة ما تتعرض له من ضغوطات الثقافات الوافدة سواء تلك التي فرضها الاحتلال، أم تلك التي فرضتها التعاملات الدولية والانفتاح على المجتمعات الأخرى.

وبناء على ما سبق، تحاول هذه الورقة أن تتناول هذه المسألة من خلال الأسئلة الآتية:

- إلى أي مدى يمكن القول إن أسئلة الهوية في الوسط الجزائري بدأت كنتيجة للاستعمار وسياساته الثقافية؟
- ما هي الأبعاد الحقيقية للهوية الثقافية عند أمة معينة، وما هي حدود التحديثات التي تتطلبها المتغيرات المجتمعية؟
- ولماذا تستهدف الثقافة العربية الإسلامية بطلبات التغيير أكثر من غيرها، وما دور الشرائح المثقفة في إدارة التحولات الثقافية بما يخدم الأمة؟

أ. في مفهوم الهوية الثقافية:

ظل مفهوم الهوية يدور حول الانتماء البيولوجي فترة طويلة من الزمن، فكان على الفرد أن ينتمي إلى "جماعة تتعين بالنسب البيولوجي أو العرقي الإثني"¹، لكن هذا المفهوم تعرض لتغيير ملحوظ نتيجة للجدل الحاد الذي أثاره في بعض المجتمعات المختلطة إثنياً مثل الولايات المتحدة الأمريكية. غير أنه يمكن الانطلاق من التعريف النفسي للهوية القائل بأن الهوية "حالة ذهنية وعاطفية تؤدي إلى الثقة بالنفس والقدرة على التطور في الوسط الاجتماعي تطوراً أفضل للمصالح الشخصية"²، للاقتراب من المفاهيم الحديثة الأكثر ملائمة لطبيعة الحياة الحديثة.

والهوية الثقافية هي البصمة التي تميز الإنسان عن غيره ضمن مجموعة بشرية معينة، وتتميز بثباتها وأصالتها وضمها لمجموعة من العناصر المتجانسة مثل اللغة والدين والعادات الاجتماعية والمظاهر الحياتية بما يحقق الانسجام في التفكير والمعاملات؛ وعلى أساسها تتميز الأمم والجماعات بعضها عن بعض.

وتعد اللغة إحدى الركائز الأساسية لهوية الشخص أو الجماعة، وهي المظهر الثقافي البارز الذي يستقطب الاهتمام كلما أريد التمييز بين الشعوب والأمم، ولهذا ترتبط بالتعليم الذي يحافظ عليها وينشرها وينقل الفكر بها. لهذا وجدنا الشعوب الغالبة في كل الأزمنة تحاول أن تحكم سيطرتها على الشعوب المغلوبة باللغة أكثر من غيرها، لأن تلك السيطرة يطول أمدها متى استحكمت، وتؤدي في كثير من مظاهرها إلى تبعية لا مناص منها.

أ- الهوية الجزائرية والسياق الكولونيالي:

كان الأكاديميون المستعمرون الأداة الفعالة التي ساعدت الاستعمار الفرنسي في تحقيق غاياته في البلدان التي احتلها، خاصة في الجزائر التي عدت على الدوام بقعة جغرافية استراتيجية بالنسبة لفرنسا؛ بل لقد كان لهذه الفئة من العلماء والدارسين الدور الأكبر في نجاح أغلب الحملات الغربية على العالم العربي والإسلامي منذ الحروب الصليبية على الشرق، وربما قبل ذلك أيضاً. ولطالما غطى الاستشراق الفرنسي على الاحتلال العسكري وما انجر عنه من مأسا بآداء زائف مفاده أن فرنسا تهدف إلى نشر رسالة حضارية في الوسط الجزائري وتعليمه اللغة الفرنسية ليكون أقرب إلى منابع الحضارة الغربية، متناسياً أنه "لا توجد ولا يمكن أن توجد حضارة عالمية بالمعنى الدقيق للكلمة، لأن الحضارة تفترض تواجد ثقافات متنوعة للغاية، بل هي تتمثل في هذا التواجد نفسه. ولا يمكن للحضارة العالمية أن تكون إلا تحالفاً، على الصعيد العالمي، بين ثقافات تحافظ كل واحدة منها على طابعها الخاص."³

ولقد أدت (جمعية الكتاب الفرنسيين في الجزائر - le mouvement algerianiste) بقيادة (لو كوك Lecoq) الذي رأسها لأول مرة عام 1921 و (مارسيل موسي Marcel Moussy) و (جون بوميه Jean Pomier) وأمثالهم دورا خطيرا في بلورة ذلك التوجه نحو تغيير ملامح الهوية الجزائرية⁴، خاصة إذا علمنا أن أدبياتهم كانت في أغلبها تصب في فكرة " إفريقيا اللاتينية " و " إفريقيا الجديدة " وغير ذلك من الأفكار التي يعتقد أنها كانت تهدف في آخر الأمر إلى خلق امتداد للثقافة الفرنسية في مستعمراتها الكثيرة أملا في ما هو أبعد من الثقافة ونعني به الاستحواذ على مناطق تؤمن لفرنسا الموارد اللازمة. ولعل الكاتب الفرنسي (أوغست برنارد Auguste Bernard) كان أوضح عندما أبان عن الهدف الحقيقي للاستعمار الفرنسي في الجزائر إذ يقول "إننا لم نحضر إلى الجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية.. وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية.. ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما.. إننا نريد أن نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات.. وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هوغو"⁵.

هذا القول وغيره - في الواقع - يكشف عن حقيقة السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر كشفا واضحا، وهي تغيير معالم الثقافة الجزائرية وطمس هوية الإنسان الجزائري من خلال محاربة مقومات شخصيته المحلية، بأبعادها المختلفة، وبوسائل شتى أهمها نشر اللغة الفرنسية بديلا عن العربية؛ فبقاء اللغة العربية لا يمكنه إلا أن يثبت شرائح المجتمع المختلفة على المطالبة بجلاء المحتل، أو محاربته حتى يغادر، خاصة أنها لغة القرآن الذي يشكل الجهاد ضد الظالمين أساسا مهما في تعاليمه السمحة. على أن فرنسا اللسان الجزائري أيضا مرس بطريقة مدروسة لأن إطلاقه وتعميمه كان يعني بشكل أو بآخر خلق مجتمع متعلم أو مثقف في هذه البلاد، ولا ضمان في أن يكون مواليا لفرنسا، لهذا تقطن بعض المفكرين الفرنسيين إلى ذلك، ومارسوا نوعا من التمييز حتى في تعليم الفرنسية لأبناء الشعب الجزائري، إن من منطلقات عنصرية، أو من منطلق الخوف من المستقبل. ويعبر عن ذلك ببيير مورلان بقوله: "لا يجب أن ننظر إلى المواطن الجزائري وكأنه ذو عقل شبيه بعقلنا، وإذا فكرنا في أن التعليم يستطيع أن يغيره تغييرا كاملا، فإننا نخالف بذلك بل نتجاهل قانون التطور الثابت".⁶ هذا منطلق عنصري واضح، يرسم الجزائري مخلوقا متخلفا أصلا، وغير قابل للتفكير مثل الفرنسي، أما المعمرون فقد كانوا يرفضون إنشاء أي تعليم لفائدة أبناء الجزائريين، لأنهم كانوا يرون أن التعليم من العوامل التي تدفع السكان للمطالبة بحقوقهم الشرعية، وأنه من أقوى الأسلحة لمقاومة الاستعمار، بالإضافة إلى انعدام ثقة الجزائريين بكل ما يصدر من السلطات الاستعمارية.⁷

وفي مظهر آخر من مظاهر الظلم الذي تعرض له أبناء هذا الوطن ثقافيا، ذهب المستشرقون الفرنسيون في الاستهانة باللغة العربية إلى حد كتابتها للجزائريين بالحرف اللاتيني، بدعوى وصولها السريع إلى الأفهام، وإذا كتبوها بالحرف العربي فهي بعيدة عن العربية الأصلية، إذ يبدو فيها الضعف وسوء التركيب واضحين، ناهيك عن الأخطاء التي تعمدها إدراجها رغم معرفتهم الجيدة للغة العربية، وقسموا العربية بناء على ذلك إلى لغة كلاسيكية، ويعنون بها الفصحى، ولغة الحديث التي يعنون بها المستعملة والمختلطة بالعامية.

وكان من نتائج هذا الوضع، أن ضيق مجال التعليم أصلا أمام الجزائريين، وإذا سُمح لبعضهم به فإما لأنه مطلوب للخدمة في الإدارة الفرنسية، فيساعد بذلك في تعامل المحتل مع أبناء شعبه، وإما لأنه من أبناء الطبقة المتعاملة مع فرنسا على حساب شعبها. أما الغالبية من الجزائريين، فكانما رأى المستعمر أن الجهل والتخلف أنسب لها، فتموت فيها جذوة النشاط والتفكير، ويركن إلى التمسك بالخرافات والبدع التي هي أقرب إلى المخدر الذي يوهم صاحبه بأنه كائن اجتماعي بينما هو أبعد ما يكون عن ذلك.

هذا أسوأ ما لجأت إليه فرنسا الاستعمارية على مستوى التعليم، فلا هي علمت الجزائريين اللغة الفرنسية حتى يتمكنوا منها علميا وثقافيا، ولا هي تركتهم يتعلمون لغتهم العربية، ويتعاملون بها كما كان الحال قبل احتلالها لبلادهم. وقد عبر عن ذلك أحد الفرنسيين بقوله: "أردنا أن نجعل من إخواننا المسلمين شعبا من الأميين... وقد كان الأمر يهون لو أننا لم نحرم عليهم إلا استعمال لغتنا، ولكن الواقع أن من متطلبات النظام الاستعماري أن يحاول سد طريق التاريخ عليهم، ولما كانت المطالب القومية في أوروبا تعتمد دائما على وحدة اللغة، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات".⁸

وقد عملت جهات فرنسية على فرض واقع لغوي هو أقرب إلى نموذج جزر أمريكا الوسطى، الذي يعرف بلغة الكريول⁹، تلك اللغة الفرنسية المبسطة إلى أقصى درجاتها مع اختلاطها باللغة أو اللغات المحلية، فتفقد بذلك قوة التعبير عن الفكر والثقافة، وتكون مجرد وسيلة اتصال بين الأفراد، فترسخ بذلك نوعا من التخلف لدى الشعوب التي تتحدث بها، وتميزهم عن الشعب الفرنسي وإن كانوا خاضعين لسيطرته.

ب. اللغة ومشكل الهوية في الجزائر:

نتج عن تلك السياسة الاستعمارية حصولنا على ثلاث فئات كونت المجتمع الجزائري لغويا وثقافيا: الأولى فئة أمية تفوق نسبتها النصف بكثير من جميع أعمار وشرائح المجتمع، والثانية فئة مفرنسة تكونت في المدرسة الفرنسية مخيرة أو مجبرة، والثالثة فئة معربة تكونت في المدارس الدينية أو المدنية داخل أو خارج الوطن. وإذا نظرنا إلى هذا التقسيم بعين فاحصة، وجدنا أن التعامل باللغة العربية بُعِد الاستقلال كان قليلا وضعيفا، ليس فقط لأن الفئة المعربة كانت قليلة العدد، بل أيضا لأنها فئة لم يكتب لها أن تكون في مراكز القرار في البلاد، لتعمل على تشجيع اللغة وانطلاقها بالقوانين خاصة، لأن التعليم كغيره من حقول الخدمة العامة في حاجة إلى سياسة قوية تدعمه وتعمل على تطويره وتوجيهه.

ولقد طرحت مسألة الهوية في الجزائر نتيجة لذلك بوصفها واحدة من أكثر المسائل الثقافية إثارة للجدل، رغم التوافق الحاصل حول الموقف من الإرث الاستعماري، بل يمكن اعتبار تلك المسألة "إشكالية قصوى ضمن فسيفساء المشهد الثقافي

ككل"10، خصوصا في ظل التحولات الحاصلة في عالم ما بعد القطبين الاشتراكي والرأسمالي. وهكذا ظهرت مسألة العروبة في مقابل الأمازيغية، أو العروبة مقابل المتوسطية، أو العالمية، أو الجزارة في مقابل العروبة، على النمط الذي شهدته مصر في بداية القرن مع العروبة والفرعونية واللاتينية، ما أدى انقسامات رهيبية بين جمهور المثقفين كانت له تداعيات خطيرة على وحدة الدولة العربية ناهيك عن وحدة الوطن العربي عامة.

غير أن أسوأ ما في هذه القضية أن الاختلاف في مسائل الثقافة والهوية أدى في كثير من الأحيان إلى التطرف في الانتماء أو الانحياز إلى هذا الاتجاه أو ذلك، وتم تجاهل القواسم المشتركة التي بإمكانها احتواء نقاط الاختلاف في جزئيات الهوية، كما هو حاصل في المجتمعات التي حققت مستوى واعي متقدم جعلها تحقق مستوى اقتصاديا واجتماعيا مرموقا. في هذا الإطار يمكن إدراج الصعوبات التي اعترضت مسار تعميم اللغة العربية في الجزائر منذ الاستقلال، وهي لغة غالبية ملحوظة من الشعب الجزائري الذي ارتضاها لغة منذ قرون خلق سواء أقتنحها أم لا، وسواء انحدر من العرب الذين استوطنوا هذه الأرض أم انحدر من سكانها الأصليين القدامى. وما حدث مع قانون تعريب الإدارة والتعاملات الإدارية في إطار ترسيم اللغة العربية لغة وطنية سنة 1971 خير مثال على ذلك، فقد أريد للقانون أن يكون أحد الأطر التي تستعيد الجزائر من خلالها جانبها مهما من هويتها الثقافية والحضارية، لكن الدوائر الفرنسية والفرنكوفونية سعت إلى إحباطها؛ ذلك أنها أدركت أن تعريب الإدارة وحقوق العمل في الجزائر هو الذي يضمن ممارسة اللغة العربية في الحياة العملية الفعلية، ويحد من استعمال لغة المستعمر، وبالتالي من الوجود الفرنسي نفسه.11

هذه الضغوط الفرنسية والأجنبية انعكست بخاصة على صورة اللغة العربية عند أهلها، فقد أشيع ارتباط اللغة العربية في الأذهان بالماضي الغابر، واللغات الأجنبية بالحاضر والمستقبل لارتباطها بالتكنولوجيا والإنتاج المادي، مما حدا بالمدرسة الجزائرية إلى الاعتقاد بأن الاختصاصات التقنية لا بد لها من لغة أجنبية بحجة " تمكين الطلبة من التحكم أكثر فيها لفلة المراجع باللغة العربية" و"أن التدريس باللغة الأجنبية يقتصر فقط على تلك المواد العلمية في حين أن البرنامج العام يتضمن تدريس وحدات باللغة العربية فقط منها المواد الاقتصادية والاجتماعية".12 وبما أن المواد التقنية مرتبطة في أذهان العامة وكثير من المثقفين بالتقدم والرقى، فإن تدريسها باللغة الأجنبية يفهم منه أن اللغة العربية قاصرة عن أداء هذه المهمة، وبالتالي فإنها تبقى لغة الأدب والإنسانيات والاجتماعيات، وفي الإطار الأكاديمي البحث.

على أن اللغة الفرنسية أو غيرها ليست هي المشكلة في ذاتها، فالخطر آت من الفكر الذي تحمله، والثقافة التي تنترجها إذا تبثت في النفوس والعقول؛ فالاستعمار الذي لم يستطع الحفاظ على مستعمراته بقوة السلاح، خطط للنجاح في ذلك بوسائل أخرى لعل أبرزها الثقافة والاقتصاد. وإذا كانت بعض شرائح المثقفين ثقافة فرنسية واعية بحيث لا تقع فريسة لهذه السياسة التغريبية، فإن فئات كثيرة من المتعلمين وأنصاف المثقفين قد لا تسلم من ذلك، وهي شريحة واسعة أغلبها من المتدرسين وخريجي المدارس والمعاهد والجامعات. جذر

ج. الهوية والضغوط الأجنبية:

إن التغيرات التي شهدتها العالم منذ الحربين العالميتين خاصة، والوضع الضعيف الذي أصبح يعانيه العالم العربي على الصعيدين الثقافي والسياسي، ازدادت الضغوط الغربية على العرب والمسلمين بهدف التخلي عن كثير من المبادئ والمقومات التي تدخل في إطار الهوية، بالإغراءات المادية تارة، وبالتهديدات الاقتصادية تارة ثانية، وبالاختراق الثقافي تارة أخرى، فوجدوا أنفسهم يلجأون إلى إعادة النظر في عناصر الهوية؛ فقد صور الغرب اللغة العربية رديفة التخلف، كما اختلط مفهوم الجهاد عندهم بالإرهاب، والاستشهاد بالانتحار، والتدين بالتشدد، مما أوقع العرب في حرج كبير.

ولقد جاءت فكرة العولمة " كسياسية تنموية غربية تعمل على سيادة الأيديولوجية الليبرالية الغربية كمطلق واحد ووحيد في الكون برمته على جميع الأصعدة"13 تحاول إقناع الشعوب بضرورة الانضواء تحت مظلة عالمية واحدة في مجالات الحياة المختلفة، فتتصهر الثقافات وتتوحد الرؤى والمفاهيم، ويتكلم العالم بصوت واحد هو صوت القوي الذي يفرض إرادته لأنه يقود دواليب الاقتصاد العالم. مما يجعل اللغة الإنجليزية اللغة العالمية التي يجب أن تسود وتنتشر معها ثقافة الغربي المتفوق بكل أبعادها الفكرية والأخلاقية والاجتماعية، ما يؤدي في النهاية إلى تراجع الاهتمام بالثقافات الأخرى أو اعتبارها ثقافات متخلفة، ويصل الأمر في النهاية إلى التشكيك في الثوابت والمقدسات والهوية فيدخل المجتمع متاهات الجدالات العقيمة المفضية إلى مزيد من التمزق والتنافر.

وازداد الوضع سوءا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حين تغير العالم بطريقة شبه مفاجئة ومخيفة؛ إذ وجهت إلى العالم العربي والإسلامي أصابع الاتهام بالتطرف والإرهاب؛ وهي تهمة ليست سياسية بقدر ما هي ثقافية بالدرجة الأولى. وهكذا أصبح التاريخ واللغة والدين والفكر برمته في قفص الاتهام، وبدأت مطالب التغيير تزداد إلحاحا، خصوصا التغيير الخارجي الذي يهدف إلى تطويع هذه البقعة من العالم وإدخالها الصف تحت طائلة إجراءات قاسية قد تصل إلى التدخل العسكري، فمورست ضغوط لتغيير مناهج التعليم، والتخلص من كثير من المواد التي فهم منها الدعوة إلى التعصب والتشدد وغيرهما، ودخلت اللغة العربية لارتباطها بالدين على خط الاتهام بوصفها عامل من عوامل بلورة الفكر المتطرف.

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن تدهور اللغة العربية إذن بوصفها الجزء المهم في هوية الإنسان العربي - فردا وجماعة - ضمن إطاره الاجتماعي مرتبط بالوضع العربي العام، فالعرب مازالوا في دائرة الدول المستهلكة للأفكار والبضائع، وآلة الإنتاج المادي والمعنوي ضعيفة، ووضع كهذا لا بد أن ينعكس سلبا على اللغة العربية في تزامنها مع اللغات الأجنبية. بل إن البرامج الدراسية والمناهج المعتمدة في التدريس نفسها من صنع غربي تستقدمها هذه الدول وتحاول التكيف معها، وليس بمقدورها أن تبتدع لنفسها ما تقوم به برامجها، وما يضيفي على لغتها وتاريخها وحضارتها طابع التقدم والرقى. ولقد أصبحت

جهود القدماء ضربا من الذكريات التي تثير فينا الحنين إلى ماض ولى، بينما كان علينا أن نوجد لأنفسنا استمرارية لما تركه القدماء نبني به عزا دائما متواصلا ينعكس على شخصيتنا ولغتنا ودورنا في صناعة الحضارة الإنسانية. ويؤكد الخبراء بهذا الشأن " أن ما تعانيه لغة الضاد مرده إلى ضعف الوعي السياسي العربي الراهن الذي أشاع نوعا من "التكابر" على لغتنا الأم لصالح لغات أخرى." 14

وإذا أضفنا إلى ذلك، في مثال الجزائر، تاريخا حديثا مرتبطا في معظمه بحقبة استعمارية قاسية، أمكننا أن ندرك حجم الضغوط التي تمارس على هذا البلد لتغيير هويته أو تشويهها على الأقل، وهذا ما يلاحظه العرب خاصة حين يزورون الجزائر فيلاحظون حجم الاختلاف بين الجزائري وغيره في كثير من عناصر الحياة وعلى رأسها اللغة.

د. عوامل الحفاظ على الهوية الوطنية:

ارتفعت أصوات كثيرة تحاول علاج هذا الوضع السلبي، وتطالب بوضع المخططات الهادفة إلى الحفاظ على الهوية الوطنية، ويمكننا أن نقف عند مجموعة عوامل كثر عنها الحديث بوصفها مساعدة على تفادي مزيد من التأزم على مستوى الهوية الوطنية:

العامل الأول: استرجاع الهوية الوطنية مرتبط أشد الارتباط بالأجيال الصاعدة؛ فإذا لم يدرك التلميذ والطالب والشباب عموما ذكورهم وإناتهم أنهم رجال ونساء الغد، وحاملو لواء الفكر والثقافة في الأمة، والساھرون على سلامة هذه الهوية الوطنية من التشويه والضياع بما فيه ذلك اللغة التي تربطهم بجذورهم، وتصاحبهم في مستقبلهم، فإن حلم هذه الأمة في المنافسة، والبقاء ضمن الأمم الحية قد يتبخر. وعليه، فإن اجتهدهم في تثبيتها والاستماتة في الدفاع عنها كفيل بأن يضع الجزائر في المكان اللائق بها.

العامل الثاني: التخلص من عقدة النقص تجاه الآخر، التي تبدو جليلة في العالم العربي. فإذا كانت اللغات الأجنبية تصنع العلم والمعرفة، فإن ذلك يعني أن الإنسان الأجنبي هو الذي ينتجها، أي أن المزية أو العيب ليست في اللغة، بل في إرادة أصحابها في خلق أسباب الرقي والتقدم. خاصة في الجامعة التي تعد المرحلة التعليمية المعول عليها في هذا المجال نظرا لمستوى الوعي وإمكاناتها الإبداعية.

العامل الثالث: فهو فتح فرص العمل الفكري أمام خريجي الجامعات، وإعطاء أبحاثهم ودراساتهم العناية الكافية، فالعلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها، لا تنتج المادة، ولكنها تبني من ينتج المادة، وهو الإنسان. لهذا وجدنا في مجتمعنا الجزائري شرائح واسعة تحترق العلوم المعنوية بما فيها اللغة، وتؤمن أن إنسان العصر في غنى عنها، وأن لا مستقبل إلا لمن يخوض في العلوم المادية، فيوسم بالتقدم والرقي، بينما الصواب أن العلوم متكاملة فيما بينها، ولكل منها فوائده وعاداته، وخاصة اللغة بوصفها حاملة للفكر الذي يحمي الهوية، ويحافظ على حياة المجتمعات والأمم.

العامل الرابع: اعتماد التجديد والتحديث والتغيير الداخلي المنبعث من رغبة وإرادة المجتمع والمبني على أسئلة جوهرية وإجابات مقنعة؛ لأن قسما من الانتقادات الموجهة إلى هويتنا أو بعض عناصرها حدث إما نتيجة قراءة خاطئة لبعض مكونات الفكر العربي، وإما لأن بعضها لم يعد يراعي الظروف الجديدة التي يحياها الإنسان المعاصر. واللغة كغيرها من عناصر الهوية لا بد أن تخضع لقانون الحركية والتغيير في الإطار الذي لا يمس بجوهرها وتميزها.

العامل الخامس: إن تعلم اللغات وتدريسها أمر ضروري، ولا جدال في حاجة الشعوب إلى لغات غيرها، غير أن تعلم اللغة الوطنية أولى بصرف النظر عن كونها لغة العلوم أم لا، فالشعوب التي تحترم ثقافتها هي التي تتجاوز إدراك لغاتها إلى لغات غيرها، فتبرهن بذلك على أنها تنتمي إلى هوية معينة على الرغم من اغترافها مما لدى غيرها، لأن ما نأخذ من الغير يجب أن يكون دعما لما لدينا لا طاغيا عليه أو نائبا عنه.

خاتمة:

ونخلص في نهاية هذه الورقة إلى التأكيد على جملة من النقاط، أهمها:

- إذا كنا ركزنا هنا على اللغة العربية كعنصر أساس في هوية الإنسان الجزائري، فإننا لا نقصد إلى تهميش اللغة الأمازيغية التي تعتبر عنصرا مهما في تلك الهوية أيضا، ولا مجال لافتعال الصدام بينهما، لأن العناصر الأخرى ستكون الرابط القوي بينهما مثل وحدة الدين والأرض وكثير من المظاهر الاجتماعية التي تجمع الشعب الجزائري في لحمة واحدة.

- إن الحضارة الإنسانية تقتضي التنوع والاختلاف بين الشعوب المكونة لها، يجمعها الاحترام المتبادل لمقومات كل أمة، على أن الاحتكاك بينها واستفادة بعضها من بعض تعد ضرورة، ولكن من دون ضغوط أو ازدراء أو محاولة لمحو معالم بعضها بحجة المدنية أو القوة أو غيرهما. فمقاومة الضغوط التي تمارسها القوى الأخرى حق مشروع في الإطار الحضاري والفكري.

- إن التعليم عماد قوي من أعمدة بناء المجتمعات، بما يقوم به من تنمية لحس الانتماء والشعور بالهوية. لذا من الضروري أن ينبع من عمق المجتمع وفكره ومرجعياته الفكرية حتى وإن انفتح على المستجدات والمبتكرات الحديثة. فلا يمكن أن يكون الإنسان غيره، ولا أن يتقمص شخصية غير شخصيته، وإذا حاول ذلك فلا يقابل عادة إلا بالازدراء أو الاستخفاف، وعالم اليوم ملئ بالشواهد.

- إن الآباء والأجداد لم يقوموا بثورة التحرير الكبرى إلا ليؤكدوا هويتهم وحقهم في أرضهم ومجتمعهم، وتلك رسالة واضحة لكل ذي عقل سليم، فلو كان الجزائري يستسيغ العقلية الاستعمارية الدخيلة، أو يقبل أن يعيش حياة لا ترتبط بثقافته لما ضحى بكل تلك الأرواح الطاهرة في سبيل الاستقلال والسيادة.

هوامش:

1. دافيد أ. هولنجر. الهوية والتضامن. ضمن كتاب: (الهوية) لمجموعة مؤلفين. تر: عبد القادر قنيني. المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ط1. 2005. ص 67
2. ¹ المرجع السابق. 88
3. ¹ المقولة لكلود ليفي ستر اوس تجدها في مقال بعنوان: رحيل أبو الأنثروبولوجيا الحديثة لوسيلة بن شني . بموقع <http://elkhabar-hebdo.com/site/news-action-show-id-505.htm>
4. ¹ Jean Déjeux . La littérature Algerienne. que sais-je? P.U.F. 1er 1975 . pp 26-36 .
5. ¹ سكينة بوشلوح ، عرض لكتاب الطيب بن إبراهيم : "الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر" الرابط: <http://forum.meshfakeronline.net/index.php?showtopic=29604>
6. ¹ عثمان سعدي، مأساة شعب وتبلد ضمير، مجلة الآداب، العدد: 05، بيروت، ماي 1955م، ص: 5.
7. ¹ الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، 12، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1994م
8. ¹ سكينة بوشلوح، عرض لكتاب الطيب بن إبراهيم: "الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر". م. السابق.
9. ¹ لغة الكريول هي لغة هجينة تنشأ من لغة أم كالإنجليزية أو الفرنسية و لهجات مستعمرة من المستعمرات بحيث تصبح مزيجا بين هذه و تلك كما حدث في جزر هايتي ، و جزر السيشل و غيرهما . و تعرف هذه اللغة بمفردات محدودة في عددها ، بسيطة في تركيبها و لا يتبع ترتيب المفردات في الجملة نظاما معينا . انظر صحيفة العرب الأسبوعي. عدد يوم 2008/01/12 ص 26
10. ¹ عمر مهيل. من النسق إلى الذات. 75. منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم -ناشرون. ط1. 2007
11. ¹ انظر : عثمان سعدي، دور الشعر بالجزائر في بث الوعي القومي، ضمن كتاب" دور الأدب في الوعي القومي العربي"، 384، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 1984.
12. ¹² جاء هذا في تصريح لوزير التعليم العالي والبحث العلمي ردا على الأسئلة الشفوية من أعضاء البرلمان. انظر صحيفة المساء، بتاريخ 2010/01/15
13. ¹⁴ شحاتة صيام. علم اجتماع العولمة. 124. مصر العربية للنشر والتوزيع- القاهرة. ط1- 2009
14. الجزيرة نت، الرابط: <http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=1081406> .a